

الأسرى ومعركة الوعي والكتابة

فراس حج محمد (كاتب فلسطيني)

توجه إليّ بهذه الأسئلة الصحفي علي النويشي من أجل تحقيق صحفي لمناقشة أدب السجون ورواية "قناع بلون السماء" للأسير الكاتب باسم خندقجي. شارك في هذا التحقيق كتاب ونقاد آخرون، ونشر في موقع الجزيرة نت بتاريخ: 2024/3/13.

ما الهدف من تشجيع الأسرى الفلسطينيين على رواية قصصهم؟

تعد تجربة الاعتقال تجربة مهمة في حياة الكاتب، بل في حياة الإنسان بشكل عام، وهي ليست تجربة سياسية فقط، بل إنسانية، واجتماعية، لها بعد ثقافي. فعندما يكتب الأسير هذه التجربة فإنه يوثق لمرحلة مهمة من مراحل حياته الشخصية التي ستشكل مع حيوات آخرين وثيقة مهمة على حقبة من حقب النضال الفلسطيني الممتد منذ أكثر من قرن. فلا بد من أن يكتب الأسير قصته، ونشجعه جميعاً على ذلك، لأن له قصة إنسانية مختلفة عن غيره. عدا أن ما يكتب يمكن اعتباره أدبا تسجيلياً مهماً.

ربما لا يختلف الأسرى في كثير من الخطوط العامة فيما يكتبون من لحظة الاعتقال والتنقل والمحاکمات والتحقيق والعيش داخل المعتقل نفسه، والعلاقة بين الأسرى أنفسهم، وعلاقة

الخارج مع الداخل إلا أن هناك ما يخص الأسير نفسه، مشاعره، وعالمه الخارجي الذي يعيش معه داخل التجربة يجعل من تجربته تجربة فريدة غير مكررة، خاصة إذا كتب الأسير أدبا شخصيا ولم يذهب إلى العموميات كما كتب على سبيل المثال الروائي هيثم جابر وعنان الشلبي وأحمد الشوبكي. فقد قدموا شهادات شخصية مهمة على هذا العالم.

والأمر الثالث، فإن هذه التجارب بعمومها تساهم في رقد أدب المقاومة الفلسطينية لما تحمله من نفس في التحدي والمقاومة، وعليه فإنها تشكل ركنا أساسيا من هذا الأدب، وسيظل الأدب الفلسطيني ناقصا إذا لم يكن أدب الأسرى أحد روافده المهمة. هذا الأدب الذي يتشكل من ثلاث دوائر مهمة: أدب الداخل، وأدب الشتات، وأدب الأسرى.

هل كتابة الروايات وسيلة الأسرى للكفاح ضد الظلم؟

كل كتابة هي مقاومة، سواء أكانت لسياسي ومقاوم أو لأي كاتب آخر، فالكتابة لها هذه الأهمية في أنها أداة من أدوات المواجهة، وتكتسب الكتابة في الحالة الفلسطينية أهميتها من هذا الباب، ويتعمد الاحتلال التضييق على الكتاب لأن الكتابة خطيرة، وهم يدركون ذلك، ففي كتابي "تصدع الجدران- عن دور الأدب في مواجهة العتمة" أحصيت أكثر من 130 كاتبا وكاتبة داخل المعتقلات الصهيونية، يكتبون الأدب والمقالة والبحث، ويعانون من كافة أشكال الاضطهاد.

وفي تجربة خاصة عملتُ عليها مع المحامي حسن عبادي، جمعنا شهادات 36 أسيرا فلسطينيا تحدثوا عن طقوس الكتابة داخل المعتقلات، يظهر الأسرى في هذه الشهادات كيف أنهم يصارعون من أجل الكتابة، كما يصارعون من أجل القضية السياسية وبذات الدرجة التي يناضلون من أجل أن يعيشوا الحياة بحرية وكرامة.

ولأهمية الكتابة للأسرى، فإن تجربة الاعتقال، وخاصة عند ذوي الأحكام العالية من أمثال باسم خندقجي وكميل أبو حنيش وهيثم جابر وأحمد العارضة تحولت الكتابة إلى مشاريع ثقافية كاملة ومكتملة، وأتاحت لهم تجربة الاعتقال الطويلة فرصة كبيرة للتأمل والاشتغال على هذه المشاريع بحرفية وفنية عالية، على الرغم من تعرض مشاريعهم إلى المصادرة أو التدمير، وقد يتعرضون بسببها إلى إجراءات العزل الانفرادي والعقوبات الأخرى، كما حدث مع كثيرين منهم.

هل القصد مقاومة استخدام القوة الغاشمة في قهر الإنسان، أم أن تجارب الأسر من الممكن أن تزيد وعي الأمة العربية بطبيعة العدو، وتزيد قدرتها على مواجهته؟

أعتقد أن الأمة بمفكرها ومثقفها ومتعلمها يدركون طبيعة هذا العدو، فلم يعد أحد يجهله، ومنذ زمن بعيد يكتب المفكرون، ويحللون العقلية الصهيونية الاستيطانية التحليلية القائمة على الأسطورة التوراتية، كعبد الوهاب المسيري وفهمي هويدي وإدوارد سعيد وآخرون كثيرون ممن أفاضوا واستفاضوا في هذه

المهمات الجليلة، فالوعي الثقافي الفكري موجود، لكن للأسف لا يوازي هذا الوعي الجذري ووعي سياسي حقيقي قائم على مقاومته ومواجهته، فالأنظمة العربية ليست على المستوى المطلوب في تحقيق الإرادة الشعبية والوعي الفكري في الحد من مخاطر الهجمة الصهيونية على الشعب الفلسطيني وثقافته ومثقفيه.

وبالطبع فإن كل هذه المشاريع الثقافية الكبيرة تتجه إلى مقاومة آليات البطش والتغول الصهيوني في العقل العربي والجغرافيا العربية، وهذه جبهة مهمة تحرس الوعي العام للجماهير العربية من إمكانية التطبيع مع العدو، وإمكانية قبوله ليكون عنصراً متآلفاً في المنطقة العربية، ومكوناً من مكوناتها الطبيعية، بل على العكس، سيظل المشروع الصهيوني جسماً غريباً عن المنطقة مهما طال عمره.

ومع كل ذلك لا يمكن تحميل المثقف والكاتب والأسير مهمة النضال وحده، فالكتب ليس بإمكانها إخراج العدو من أرض احتلها، ولن ترجع شهيدا قضى نحبه، ولا أسيراً غاب في دياجير القهر، إنما لا بد من قوة تصارع قوة العدو. وإن كانت القوة وحدها لا تكفي فإن الفكر وحده لا يكفي، وإنما لا بد من السلاحين معاً إن أردنا التحرر.

هل نعتبر روايات الأسرى أعمالاً أدبية فحسب. أم هي رسائل وشهادات وأحلام وتحليلات وتنبؤات للمستقبل؟

هناك أعمال كتابية للأسرى، تكمن أهميتها بما تحتويه من أفكار، فكثير من تلك الكتابات لا تحاكم بناء على الأصول الفنية

والنقدية المتشددة في المعايير النقدية، بل ربما كانت الناحية الأدبية فيها ضعيفة، وقد عملتُ وحررتُ كتباً لأسرى، لم تكن عالية المستوى في قيمتها الأدبية إنما تكمن أهميتها من ناحية توثيقية، وخاصة تلك الأعمال التي تضيء على عالم الأسر الداخلي فيما يخص علاقة المعتقلين بعضهم ببعض تنظيمياً، وعلاقة التنظيمات فيما بينها، هذا عالم مجهول للجماهير العربي، والكتابة فيه أمر بالغ الأهمية لأنه يقدم صورة عن النضال الفصائلي داخل المعتقلات.

ثمة كتب مهمة في هذا الجانب مما كتبه الأسير مروان البرغوثي وأحمد سعادات وعبد الناصر عيسى وآخرون لم تقتصر على تحليل اللحظة الراهنة بل تحمل تصوراتها السياسية للمستقبل فيما يخص العلاقة مع الآخر، أو شكل الدولة والكيان السياسي الفلسطيني القادم، ووجهات نظر فيما يخص المسائل المعقدة كالاستيطان والحدود والقدس، وغيرها، بالمجمل لم يترك الأسرى أمراً دون أن يبحثوه ويعطوه حقه من التحليل المعبأ بالرؤى والأحلام والأيدولوجيا أيضاً، خاصة مشروع عبد الناصر عيسى الذي يتابعه منذ سنوات وأصدر عدة كتب منه تحت عنوان "وفق المصادر".